﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

[يوسف: 87]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ثقةُ المؤمنِ بالله تعالى غاليةٌ لا يَعرفُ قيمتَها إلّا الرّاسخون في العلمِ

لمّا طَمِعَ يعقوبُ ﷺ في وجود يوسف ﷺ بما ذُكِرَ من الأمارات، وبثَّ شكواه إلى ربِّه مع علمه ببقاء ولده خاطَبَهم على سبيل التَّلطُّف بطلب البحث عن ولديْه، مع طمعه في رجاء الله ﷻ بعدم خيبة أمله في عودتهما مرَّةً أخرى؛ فمُناسبةُ الآيةِ لما سبق هو طلبُ الفعلِ المَبْنيِّ على الأملِ بالله تعالى، ورفضُ اليأسِ المَبْنيِّ على الجهلِ، فالمناسبةُ تُظهرُ ثِقةَ المؤمنِ بوعدِ الله تعالى - وإنْ رفَضَه جميعُ النّاسِ - وهذه الثِّقةُ غاليةٌ لا يعرفُ قيمتَها إلّا الرّاسخون المُتيقِّنون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ (حسّ) "الحاءُ والسّينُ أصْلانِ: فالأوَّلُ: غَلَبَةُ الشَّيْءِ بقَتْلٍ أوْ غَيْرِه، والثّاني: حِكايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وشَبَهِه. فالأوَّلُ: الحَسُّ: القَتْلُ، قالَ اللّه تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [آل عمران: 152]. ومن هَذا البابِ قَوْلُهُمْ: من أيْنَ حَسِسْتَ هَذا الخَبَرَ؛ أيْ: تَخَبَّرْتَهُ .. والأصْلُ الثّاني: قَوْلُهُمْ: حَسٌّ؛ وهيَ كَلِمَةٌ تُقالُ عِنْدَ التَّوَجُّعِ. ويُقالُ: حَسِسْتُ لَهُ فأنا أحَسُّ، إذا رَقَقْتُ له، كَأنَّ قَلْبَكَ ألِمَ شَفَقَةً عَلَيْهِ"[1].

والحَسيسُ: الصوتُ الخَفيُّ؛ قالَ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ [الأنبياء: 102]، والحِسُّ، بِكَسْرِ الحاءِ: من أحْسَسْتُ بِالشَّيْءِ. حسَّ بِالشَّيْءِ يَحُسُّ حَسًّا وحِسًّا وحَسيسًا، وأحَسَّ بِهِ وأحَسَّه: شَعَرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسَّ).

بِهِ وتَحَسَّسَ الخَبَرَ: تطلَّبه وتبحَّثه. فالتَحَسُّسُ شِبْهُ التَّسَمُّعِ والتَّبَصُّرِ؛ قالَ: والتَجَسُّسُ، بِالْجيم، البَحْثُ عَنِ العَوْرَةِ[1].

وقال الرّاغب: "الحاسّة: القوَّة الّتي بها تُدرك الأعراض الحسّيّة، والحواسّ: المشاعر الخمس، يُقال: حَسَسْتُ وحَسَيْتُ وأحْسَسْتُ، فَحَسَسْتُ يُقال على وجهيْن: أحدهما: يُقال: أصبتُه بحِسّي، نحو: عِنْتُه ورمحتُه، والثّاني: أصبتُ حاسّته، نحو: كبِدْتُه وفأدْتُه، وعبّر عن الحركة بالحسيس والحسّ"[2].

فالتّحسّس هو طلب الشَّيءِ بالحسِّ[3]؛ أي: اذهبوا فاطلبوا خبرَ يوسف ﷺ بحواسِّكم عنِ اجتهادٍ ومثابرةٍ.

2) ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾ يَئِسَ من اليَأسِ، وهو انقطاع الرَّجاء، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾: من انقطاع الرَّجاء، وهو من: يئست، وهو مثل (إيسٍ) في تصريفه[4]؛ فاليأس: قَطْع الرَّجاء[5]، وانتفاءُ الطّمعِ[6]، يَئِسَ منه يأسًا واستيأس، ويأسته. وهو بين عطفة مطمعٍ وصدفة مؤيسٍ. ورجل يؤوس[7]، يُقال: يَئِسَ واسْتَيْأَسَ مثل: عَجِبَ واستعجَبَ، وسخر واستسخر[8]، ومعنى النَّهي عن اليأسِ في الآيةِ؛ تركُ أسبابِه الرّوحيَّة والمادّيّة وهو القنوطُ.

3) ﴿رَّوْحِ﴾ الرّاء والواو والحاء أصلٌ كبيرٌ مطَّردٌ، يدلُّ على سعةٍ وفُسحة واطِّراد. وأصل ذلك كلِّه الرّيح[9]، "والرَّوْحُ التّنفّس، وقد أراحَ الإنسان إذا تنفّس، وقوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أيْ: من فَرَجِه ورحمته، وذلك بعض الرّوح"[10].

المَعْنى الإجْماليّ:

يُخاطِبُ يعقوبُ ﷺ أبناءَه بأن يجتهدوا في طلبِ خبرِ أَخَوَيْهم، من خلال الاستقصاءِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حسس).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حسَّ).
(3) الغزنويّ، باهر البرهان: 2/730.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/279.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(6) الرّاغب، المُفردات: (يأس).
(7) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (يئس).
(8) الرّاغب، المُفردات: (يأس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(10) الرّاغب، المُفردات: (روح).

والبحث بكلِّ ما أوتوه من قوّةٍ وحواسٍّ، وهو أمرٌ، وقد أتبَعَه بالنَّهي عن القنوطِ من رحمة اللّه تعالى؛ بقطع الرّجاءِ من وجدان أخَوَيْهما، وحذَّرهم بأنَّ ذلك مسلكُ القومِ الكافرين، ففي الآيةِ إرشادٌ إلى الاجتهادِ في طلبِ المأمولِ، وعدمِ الاستسلام لليأسِ؛ لأنَّه لا يليقُ بالمؤمنين، فالمؤمنُ واثقٌ باللّه تعالى، بسببِ إيمانِه الرّاسخِ، وعلمِه الثّابت، ولو خالفَه النّاسُ جميعًا، فالثّقةُ باللّه لا تعادلها أيُّ ثقةٍ، ولا توازيها أيُّ قوّة.

الثِّقةُ باللهِ تعالى غاليةٌ عزيزةٌ لا يقدرُ عليها إلّا الرّاسخون

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

نكتةُ النّداءِ بأداةِ البعيدِ:

اختيرَ النِّداءُ بأداةِ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ الدّالَّة على البُعد بتنزيل القريب منزلةَ البعيد؛ إمّا لكونهم بعد فَعلتهم تلك وضيعي القَدْر مُنحَطّي المَنْزِلة، أو للإشعار بأنَّهم لاهون غافلون عن حالة أبيهم بعدم مراعاة ما حلَّ به ونزل عليه مِن مُفارقة يوسف وأخيه، مع ما فيها من التّنبيه الدّالِّ على عظيمِ الحالةِ النَّفسيَّة لدى الأبِ بعد انقطاعِ ولدَيْه عنه.

مهماز الغفلةِ قوّةُ النِّداءِ وبلاغةُ القولِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

لمّا ظهر ليعقوب عليه السلام كذبُ أولاده أراد أن "يُصَرِّحَ لَهُم بِشَيْءٍ مِمّا يَعْلَمُهُ وكاشَفَهُم بِما يُحَقِّقُ كَذِبَهُمُ ادِّعاءَ ائْتِكالَ الذِّئْبِ يوسُفَ عليه السلام حينَ أذِنَهُ اللّه بِذَلِكَ عِنْدَ تَقْدِيرِ انْتِهاءِ البَلْوَى؛ فجملةُ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا بَيانيًّا، لِأنَّ في قَوْلِه: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: 86] ما يُثِيرُ في أنْفُسِهِم تَرَقُّبَ مُكاشَفَتِهِ عَلى كَذِبِهِمْ؛ فَإنَّ صاحِبَ الكَيْدِ كَثِيرُ الظُّنونِ[1].

كادَ المريبُ أن يقول: خُذوني

دلالةُ التّعبير بلفظ (بَنيَّ):

التّعبير بلفظِ (بَنيَّ) في هذا السّياق أخفُّ نُطقًا من أبنائي

التّلطُّفُ بالمخاطَبين أدعى في إنفاذِ المطلوبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/42.

أو أولادي، كما أنَّ فيه خصوصيَّةً بكونهم أبناءه المخصوصين لا غيرهم، فجاء الخطاب خطاب تلطُّف وتودُّد؛ ليجعل فيهم الحميَّة للعودة بأخويْهم، وليكون أبعثَ على امتثالهم لأمره وطلبه منهم.

نكتةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿يَٰبَنِيَّ﴾:

شـدَّةُ الاقـترابِ داعيةُ الامتثالِ

في إضافةِ الأبناءِ إلى ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ تخصيصٌ بكونهم أقرب النّاس إليه، فليسوا أبناء أحدٍ سواه، لذا فهُم أوْلى بإجابة طلبه وتلبية ندائه وتنفيذ أوامره.

براعة توطئة الأمر بالنِّداء:

النِّـداءُ إخضاعُ العقلِ والحِسِّ لسماعِ المطلوبِ وتحقيقِ المقصودِ

ورد التَّعبير بالنِّداءِ توطئةً للأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾، تنبيهًا على الأمر الوارد بعدها؛ وهو رجوعهم إلى المكان أو القرية الَّتي كانوا فيها؛ للإتيان ببعض أخبار يوسف وأخويْه؛ ليُلقي في أنفسهم الامتثالَ إلى ما طَلَبه أبوهم منهم حتَّى تقرَّ عينُه، لعلْمِه يقينًا بعدم موت يوسف ﷺ، وذلك فيما لاح له من رؤيا يوسف ﷺ وتعبيره له بما لم يقع بعدُ.

نكتةُ انتقاءِ مُفرَدَة ﴿ٱذۡهَبُواْ﴾:

طَـلَـبُ الأمـرِ بلطفٍ مقدِّمةُ تحقيقه وتوطئةُ إيجاده

آثر النَّظمُ استعمالَ مفردةِ الذَّهابِ في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ دون لفظِ الانطلاق ومرادفاتها، فلم يستعمل لفظَ الانطلاق مع دلالته على السُّرعة[1]، أو لفظَ الرُّجوع وهو العَوْد إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا[2]، وقد تكرّر الفعل (ذهب) في قصَّة يوسف ﷺ مراتٍ عديدة، ومعنى الذَّهاب: المُضي[3]، فالذَّهاب سيرٌ ومرور مع الاهتمام بالبحث الجادِّ عن أخويْهم، فنكتةُ استعمال هذه المفردةِ أنَّ الذّهاب فيه تحثُّ وتلطُّف يُناسب أمره لهم؛ بأن يذهبوا مباشرةً بمجرَّدِ الأمرِ، أو بعد حينٍ، فهو يترك

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طلق).
(2) الرّاغب، المُفردات: (رجع).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ذهب).

لهم أمر تقديرِ وقتِ الذّهاب، كما أنَّه يناسب فعل التَّحسُّس الَّذي أمرهم به دون الرُّجوع أو الانطلاق الَّذي يكون فيه سرعة العودة وعدم الإقامة حتَّى العودة بمفقوديهم.

بلاغةُ ذِكْرِ الأمرِ دون الاكتفاءِ باللّاحقِ:

ظـاهـرُ الـكـلامِ إطنابٌ وحقيقتُه إيجازٌ بديعٌ

ذُكِر فعلُ الأمرِ ﴿ٱذۡهَبُواْ﴾ دون الاكتفاء بأمرِهم بالتَّحسُّسِ وذلك بأن يُقال لهم: (يا بَنيَّ تَحَسَّسوا)؛ وذلك بقصدِ المبالغةِ في إظهارِ جِدّيَّة الأمر، وبيان الحالة النَّفسيَّة الَّتي هو فيها، كما أنَّ الأمرَ بالتَّحسُّسِ المَبْنيِّ على الأمرِ بالذَّهابِ يُحدِّد الوجهةَ الّتي يذهبون إليها، فإنَّ أمرهم بالذّهابِ دالٌّ على معرفتِهم المكانَ المقصود، فأراد أن يكون التَّحسُّسُ بعد وصولِ المكانِ لا قبل ذلك، كأنَّه قال: اذهبوا إلى المكانِ الّذي أتيتم منه، فإذا وصلتموه فتحسّسوا من يوسف وأخيه، ففيه إيجازٌ بديعٌ يُناسبُ مقامَ الكلامِ، فكان ظاهرُ الأمرِ الإطنابَ، وحقيقتُه الإيجاز.

بلاغة تفريع الأمر بالتَّحسُّس على الذَّهاب:

تنزيلُ الأمرِ من الأمرِ منزلةَ العلَّةِ من المعلولِ

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ محمولٌ على الوجوبِ، وصورته الظّاهرةُ هي النُّصحُ والإرشاد، وهو نُصْح يعقوب عليه السلام وإرشاده أولادَه الموجودين بتحسُّس أخبار يوسف وأخيه، والتَّحسُّسُ هو طلب الشَّيء بالحاسَّة؛ إمّا سماعًا بسماع خبرٍ، أو عيانًا برؤيتهم وتفقُّد مواضع وجودهما، فإذا تحقَّق النَّوعان نجح أمرُ الذَّهاب المقصود، ولا يُذهب إلى الشّيء إلّا إذا كان مُرادًا مقصودًا وهو من الأهميَّة بمكان، وفي ذِكْر فعل الذَّهاب الاهتمام والعناية، وفي ذِكْر التَّحسُّس حصول العِلْم بالخبر سماعًا، أو تحقُّقه عيانًا فترتَّب التَّحسُّس على الذَّهاب ترتُّب العلَّة على المعلول، وفي الأمر هنا إشارةٌ إلى البحث الجادِّ الحكيم المتأنّي.

معنى حرف ﴿مِن﴾:

لا تستصغر الأشياء فربَّما قادتك إلى ما تريد

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ للتَّبعيض؛ أيْ: تحسَّسوا خبرًا من أخبار يوسف وأخيه وتعرَّفوا بعض أخباره[1]، وعليه فهناك تقدير محذوفٍ وهو: فتحسّسوا نبأً أو حقيقةً من أمر يوسف. لكن يُحذف ما يدلُّ ظاهرُ القولِ عليه إيجازًا[2]، وحملها بعض المُفسِّرين على التَّناوب، فجعلوها بمعنى (عن)[3]، والصَّحيح أنَّها على بابِها، وأفادت معنى التَّبعيضِ، إذِ المطلوبُ هو معرفةُ شيْءٍ من الأخبارِ؛ للوصولِ إلى يوسف ﷺ، لا مجرَّد السُّؤال عنه.

نكتةُ التَّصريح باسْمِ يوسف وإبهامِ اسم أخيه:

ذكرُ اسمِ الحبيبِ متعةُ نفسٍ ولطفُ حِسٍّ

صُرِّح باسْمِ يوسف ﷺ وأُبهم اسمُ أخيه في قوله تعالى: ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ وذلك لأنَّ مصبَّ الحديث كلِّه وأساسه هو يوسف ﷺ، وهو محور الأمر ولُبُّ القضيَّة، وهو المقصود الأهمُّ بالنِّسبة له، فإذا وُجد يوسف وُجد من باب أوْلى أخوه (بنيامين)، وفي ذِكْرِه دليلٌ على أنَّه لم ينقطع عن فكر أبيه، وإن كانوا قد ضربوا عنه صفحًا، وطووا عنه كَشْحًا، فهو الأصل ولا مُقتضى للعدول عنه، وليقينه التّامِّ بحياته لا بموته.

سرُّ إيثار لفظِ الأخ على الشَّقيق:

حكمةُ الآباءِ بجمعِ الأبناءِ في رابطةٍ واحدةٍ

آثر النَّظمُ ذِكْرَ وصفِ الأخِ دون الشَّقيق في قوله تعالى: ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، وذلك دفعًا لغائلةِ الحقدِ والحسد والمكر، فلو قال: (وشقيقه) لأفهم ذلك اختصاصًا بين الاثنيْن ما ليس لبقيَّة الإخوة، فلمّا قال: ﴿وَأَخِيهِ﴾ جعلهم جميعًا في رُتبةٍ واحدةٍ مُتغافلًا أنَّ يوسف شقيق بنيامين، بقصدِ الجمعِ بين الجميعِ في رابطةٍ واحدةٍ، وهذا

(1) الشّيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/71.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/374.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/203، 202.

هو مقتضى الحكمة لا سيّما وأنَّ الحَدَثَ جلَلٌ وهو المسارعةُ في البحث عنهما.

نكتةُ إيثارِ الإطنابِ:

تمامُ الحكمةِ في الخطابِ تقليلُ أوهامِ الأفهامِ

آثر يعقوب عليه السلام ذِكْرَ يوسف وبنيامين في قوله تعالى: ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ دون أن يقول: (فتحسَّسوا من أخويْكما) مع أنَّه أوجزُ لفظًا؛ وذلك أنَّ إظهارَ اسمِ يوسف عليه السلام كان مقصودًا، ولو قال: (من أخويْكما) لسألوه عن الآخر فأوقعه في حُزنٍ زائدٍ، فآثر ذِكْرَ المُستبعَد عن أذهانِهم - وهو يوسفُ عليه السلام - والبداءةَ به لِكيْلا يقع منهم مثلُ هذا.

نكتةُ العطفِ بين الجملِ الإنشائيَّة:

الأمرُ المُقترنُ بالاحتراسِ أدْعى في الاستمرارِ من الأمرِ المُجرَّدِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾ على أمرِ يعقوب عليه السلام لأبنائه بالذَّهاب والبحث عن يوسف وأخيه، إذ إنَّه عليه السلام كان عنده من العلم ما لم يكن عندهم، ووصل هنا بين الجملتيْن لاتفاقهما في الإنشائيَّة، فالأولى بُنيت على الأمر، وهذه بُنيت على النّهي، وبين الجملتيْن جامعٌ وهو أنَّ الأولى فيها طمعٌ من يعقوب عليه السلام أنْ يأتيه خبرٌ أو نبأٌ عن ولَديْه، وفي الثّانية إلقاء الطّمأنينة في نفوس الإخوة، وإخبارهم بأنَّ فَرَجَ الله ورحمتُه قريبان يتغيّر بهما حال يعقوب، وتطمئنُّ نفسه الولْهى، فالجملتان مُتكاملتان في الغايةِ، الأولى في إنشاءِ الأمر، والأخرى في إنشاءِ الاحتراسِ عن اليأس والقنوط.

غرض النَّهي:

القنوطُ من رحمةِ الله تعالى سببُ الضَّعفِ عن المطلوبِ

المقصودُ من النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾ هو إرشادُهم إلى ما أُبهم عنهم في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: 86]، ومعلوم أنَّ النَّهي في أصل معناه هو: طلب الكَفِّ عن الفعل على وجه الاستعلاء، فهنا طلب يعقوب عليه السلام من أولاده عدمَ اليأس من فرج الله أو رحمته، وأمّا وجه الاستعلاء

فَلِعِلْمِه من عند اللّه ما لا يعلمونه، وهو حياة ابنِه يوسفَ وأخيه، وغرضُ النَّهي هنا: إرشادُهم إلى عدم اليأس مع التَّسلية والتَّصبُّر بفرج اللّه تعالى، وهو إرشادٌ إيمانيٌّ واجبٌ، لا تجوزُ مخالفته.

نكتة التَّعبير باليأس دون القنوط:

الأمـلُ معـقودٌ بنواصي الظُّنون

عبَّرَتِ الآيةُ باليأسِ دون القنوطِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾، والقنوط "أشدُّ مبالغةً من اليأس، وأمّا اليأس فقد يكون قبل الأمل، وقد يكون بعده"[1]، وهنا كان نبي اللّه يعقوب ﷺ مُؤمِّلًا خيرَ اللّه ورحمتَه وفَرَجَه برجوع يوسف ﷺ وأخيه، وكان أمله كبيرًا لعلمه من عند اللّه تعالى ما لا علم لهم به، وأمّا القنوط فهو سخطٌ على قضاء اللّه تعالى وقَدَرِه ممّا لا يليق به ﷻ، والقنوط قطع الأمل ونفْيُ الرَّجاء وهما ممّا لا يليق به ﷻ، ولا يليق أن ينهى أبناءه عن القنوطِ لانعقادِ الأمل بتحقُّق المأمول.

معنى حرف ﴿مِن﴾:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾ للابتداءِ، كأنَّه قال لهم: لا تيأسوا من رحمةِ اللّه تعالى، فمَنْ وثق باللّه تعالى ابتداءً كانت نهايتُه مُشرقةً، وعاقبته مُنيرةً.

براعة التَّعبير بمُفردة ﴿رَّوْحِ﴾:

رحمةُ الله أصلُ الـرّاحـةِ الّـتـي تُلائِم الرّوح

آثر النَّظمُ التّعبير بالرّوح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾، والمقصودُ بها الرَّحمة كما ورد عن ابْنِ عَبّاسٍ ﷺ في معنى ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾ يُريدُ: من رَحْمَةِ اللّه، وعَنْ قَتادَةَ: من فَضْلِ اللّه، وقالَ ابْنُ زَيْدٍ: من فَرَجِ اللّه، وذلك أنَّ الرَّوْحَ ما يَجِدُهُ الإنْسانُ من نَسيمِ الهَواءِ فَيَسْكُنُ إلَيْه، وتَرْكيبُ الرّاءِ والواوِ والحاءِ يُفيدُ الحركة والاهتزاز، فكلُّ ما يهتزُّ الإنسانُ لَهُ ويَلْتَذُّ بِوُجودِهِ فَهوَ رَوْحٌ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/203.

والتَّعبير برَوْح بفتح الراء أدلُّ على هذا المعنى، لما فيها من ظلِّ الاسترواح من الكَرْبِ الخانق بما تتنسَّمه الأرواح من رحمة اللّه[1].

دلالة الإضافة:

أُضيفت لفظةُ ﴿رَّوْحِ﴾ إلى اسم الجلالة لأنَّها منه ﷻ، فهي على معنى (من)؛ أيْ: رحمةٌ من اللّه تعالى، وتخصيصها بالإضافة تشريفٌ لها وتعظيمٌ لشأنِها.

علَّة الفصل بين الجُملِ:

تعليلُ النَّهي وبيانُه أرْجى في الامتثال وأدْعى في الاستجابة

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ مفصولًا تعليلًا لحضِّهم على التَّحسُّس؛ والمعنى: لا تُقصِّروا في البحث عن يوسف وأخيه، ولا تقنطوا من رحمة اللّه؛ لأنَّه لا يقنط من رحمة اللّه إلّا القوم الكافرون، فإمّا أن تكون هذه الجملة قد فُصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ قد أثار سؤالًا وهو: لماذا لا نيأس من روح اللّه؟ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾.

وإمّا أن تكون هذه الجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ مفسِّرةً للجملة السّابقة مبيِّنةً لها، ومن هنا فُصِلَتْ لكمال الاتِّصال، فالجملة على التَّوجيهيْن أقامت تعليلًا وبيانًا للنَّهي السّابق، وهذه علَّةُ الفصلِ بين الجملتيْن.

غرضُ التَّوكيد:

إلهابُ المخاطَبِ مهما زاد الاستجابةِ

أُكِّدت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ لتأكيدِ ما يعلمونه من ذلك[2]، والتَّوكيد هنا من قبيل تنزيل غير المُنكِر منزلةَ المُنكِر، وغرضُه إلهابُهم وتحريكُهم بقوَّةٍ بقصدِ النُّفرةِ عن الكسلِ في الامتثالِ للأمرِ؛ فإنَّ العبدَ إذا عَلِمَ حالَ الكافرين

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/406.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/44.

واعتقادَهم باللّه تعالى نفر منه، وأتى بضدِّه هرَبًا من الاتِّصافِ بما يمحقُ العمل.

بلاغةُ القَصْر:

القَصْر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ من قبيل قَصْر الصِّفة على الموصوف، وهو قصر صفة اليأس على الموصوف وهم ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهو قصرٌ حقيقيٌّ، ونوعُه قصرُ إفراد، فإنَّه لا ييأس حقيقةً: ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ولا يقنط من رحمة اللّه إلّا القوم الكافرون؛ لعدم علمهم باللّه تعالى وبصفاته، وبعظيم قدرته، وبواسع رحمته، أمّا المؤمنون فإنَّهم لا ييْأسون من فرج اللّه أبدًا، حتَّى لو أحاطت بهم الكروب، واشتدّت عليهم المصائب.

سببُ اليأسِ من رحمة الله الكفرُ المقترنُ بالجهلِ

فائدةُ استعمالِ أداة النَّفي ﴿لَا﴾:

استعملتِ الآيةُ الكريمةُ أداةَ النَّفي ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ﴾ دون (لن)، وهي موضوعة لطلب التَّرْك؛ ترك اليأس من روح اللّه تعالى، وهي تختصُّ بالدُّخول على المضارع سواء أكان المطلوب منه مُخاطبًا - كما حدث مع إخوة يوسف وأبيهم - أم غائبًا أم مُتكلِّمًا، وهنا عدل عن النَّهي عن التَّعرُّض إلى النَّهي بعدم الكُفْر؛ لأنَّ الكُفْر مُسبَّبٌ عن اليأس من رحمة اللّه تعالى، وأسند المُسبَّب (اليأس) إلى فاعله؛ وهم إخوة يوسف عليه السلام، وفائدةُ التَّعبيرِ بها لإنشاءِ طلبِ تركِ أسبابِ اليأسِ منذ لحظةِ الخطابِ، وإشعارًا بأنَّ اليأسَ يجب أن يكونَ متروكًا بالكلِّيَّةِ فيما مضى وفيما هو كائنٌ وفيما سيأتي.

اليـأسُ مـتروكٌ فيما مضى وما هـو كـائـنٌ وما سيأتي

نكتة إظهار ما حقُّه الإضمار:

ورد التَّعبير بالاسم الظّاهر المجرور: ﴿رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ "ولم يَقُلْ: (منه) إشارةً إلى ظهور حصوله لِمَنْ لم ييأس"[1]، ولِما فيه من تعظيم

رحمةُ الله تعالى محيطةٌ بالرّاجين

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/211.

شأنِ الرّوح الّتي هي من الله تعالى، فإنَّ للإظهارِ في هذا المقامِ ما لا يكون للإضمارِ.

نكتةُ ذِكْرِ الموصوفِ وعدمِ الاكتفاء بالصِّفةِ:

أعباءُ الرِّجال لا يُعرف فيها اليأس

القوم هم جماعة الرِّجال الَّذين يقوم بعضهم مع بعض في الأمور، ولا يقع على النِّساء إلّا على سبيل التَّبعيَّة، قال زهير بن أبي سُلمى:

وما أدري ولستُ إخالُ أدري *** أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

والمُراد بهم هنا: القوم الَّذين لهم قوة المحاولة، و﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: العريقون في الكفر، وجاء التَّعريف في المُسنَد إليه ووصفه بأل العهديَّة؛ أي: المعهودون بكُفْرهم ويأسهم من رحمة الله تعالى، أو الجنس الكافر منهم، ونكتةُ ذِكْرِ القوم دون الاكتفاءِ بصفةِ الكافرين هو بيانُ أنَّ القومَ قد اجتمعوا على الكفرِ وقاموا عليه؛ فالكفرُ لمّا كان أصيلًا فيهم وراسخًا في عقولِهم وقلوبِهم، يئسوا من روح الله تعالى.

توجيهُ تخصيصِ الكُفرِ بالذِّكر:

الجهلُ بصفات الله يقود إلى اليأس ثُمَّ الكفر

خصَّ النَّظمُ وصفَ الكفرِ بالذِّكرِ دون الفِسق في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ وذلك أنَّ يعقوب ﷺ قد جعل "اليأسَ من صفة الكافر؛ لأنَّ سببه تكذيبُ الرّبوبيّة، أو جهلٌ بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته"[1]، "وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِأنَّ اللّه واسِعُ القُدْرَةِ لا يُحيلُ مِثْلَ ذَلِكَ فَحَقُّهُ أنْ يَأْخُذَ في سَبَبِهِ ويَعْتَمِدَ على اللّه في تَيْسيرِهِ، وأمّا القَوْمُ الكافِرونَ بِاللّه؛ فَهُم يَقْتَصِرونَ على الأُمورِ الغالِبَةِ في العادَةِ ويُنْكِرونَ غَيْرَها"[2].

(1) ابن جُزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/395.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/46.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

اليأس والقنوط:

اليَأْسُ: قَطْعُ الرَّجاءِ[1] وانتفاءُ الطّمعِ، يُقال: يَئِسَ واسْتَيْأَسَ مثل: عجب واستعجب، وسخر واستسخر"[2].

اليـأس أدنى من القنوطِ، والقنوط أعلى درجات اليأس

والقنوط أشدُّ مبالغة من اليأس، واليأس قد يكون قَبْل الأمل، وقد يكون بعده، والرّجاء واليأس نقيضان يتعاقبان كتعاقُب الخيبة والظَّفَر، والخائب: المُنقطع عمّا أمَّلَ"[3]. وعليه فالتَّعبير باليأس من باب ذكر الأدنى للتَّنبيه على الأعلى ضرورةً كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23]؛ أيْ: لا يتخللكم اليأس، ولا يكون عندكم أدنى شكٍّ في رحمة اللّه تعالى ولُطفه بكم، فاليأسُ هو بدايةُ القنوطِ، فإذا وصل الإنسانُ مرحلةَ القنوطِ من رحمةِ اللّه تعالى، فقد دخل غارَ الظُّلمةِ والضَّلالِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(2) الرّاغب، المُفردات: (يأس).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»